المدنية الاسلامية
وأثرهـــا فى أوربا

الأديب الأفغانى محمد سعيد بخت ولى

إذا ما راجع الانسان صفحات الماضى ، وبحث عما كانت عليه الأمم الأوربية حين ظهر الاسلام لألفى الحريات مكبوتة ، ومصابيح العقول المستنيرة خابئة . ليس فيها بصيص من نور يهدى سواء السبيل .

ومما لا مشاحة فيه . أن الضغط السالف الذى كان منشأه الكنيسة الرومانية فى القرون الوسطى . وهو تحريم كل فكر جديد أو علم مستحدث . وإنشاؤها محاكم للتفتيش فى أسبانيا وغيرها لمعاقبة الخارجين عليها . كل ذلك كان سبباً فى إذكاء نار العداء بين قادة الفكر ورجال الدين الذين أخذوا يفرضون قانونهم على كل فرد . وهذا القانون ممثل فى كلمة (اعتقد وأنت أعمى !) . تلك الكلمة التى سيطرت على ربوع أوروبا . وبات كل واحد يرسف فى أصفادها .

فمن هذه الكلمة، يستطيع الانسان أن يعرف مقدار الحضارة الأوربية ، التى كانت تتمثل فى المدنية الرومانية وقتئذ ، والتى تحدث عنها (لاروس) فى دائرة معارفه الفرنسية حيث قال : « ماذا كانت أنظمة الرومان على وجه الأجمال ؟ كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة فى صور قوانين . أما من جهة فضائل روما ، مثل الشجاعة والتبصر والاخلاص المطلق للجماعة ، فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية . فكانت لا يرى فيها إلا ثمرها مفرطاً للمال . وحقداً على الأجنبى وضياعا لاحساس الشفقة الانسانية الخ . . . »

هذه هى مدينة روما ، التى كانت تمثل الحضارة الغربية ، فى ذلك العصر . وهذه هى الحال التى كانت تسود أفرادها . بينما كان الاسلام فى بطن الجزيرة وليداً

*
* *

ظهر الاسلام بتعاليم لها أثرها فى الحياة التى يود كل امرىء أن يحياها ، جاء طامسا لكلمة (اعتقد وأنت أعمى) فقال : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت وإلى السماء

كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ونشر مبدأ المساواة فلم يجعل بين الغنى والفقير ، والأمير والحقير تباينا فى الحقوق ، وألف بين القلوب فقال: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولم يكتف عند ذلك بل أراد أن ينبه الملوك والحكام ومن له الأمر بأنهم مسئولون أمام الله عن رعاياهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » بهذه القوانين الثابتة نشر مبدأ المساواة الطبيعية التى تحدث عنها الفيلسوف (كندرسيه) بقوله « المساواة الطبيعية لبنى الانسان هى القاعدة الأولى لمعرفة حقوقهم ، وهى أساس كل الأخلاق الحميدة »

جاء الأسلام والمسيطرون على العالم فى ذلك الزمن، يصيحون فى وجوه رعاياهم قائلين: « اطفئوا نور العقل ، اطمسوا عين البصيرة ، فان الدين ينافى العقل وقوانينه ، فصاح الاسلام بقوله : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له » وبينما كان رجال الكنيسة يقولون بأن « العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل بثمارها بنى آدم » كان رسول الاسلام يقول : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . »

*
* *

استطاع الاسلام أن يكون أمة من عدم ، وينشىء امبراطورية هائلة من لا شىء ، وكان أن أوجد مدنية خالدة ، انتفع بها القاصى والدانى ، وذلك بفضل قوانينه العالية المذكورة فى سفره الأعظم « القرآن الكريم » الذى قال فيه القس رودويل :

« يجب الاعتراف بأن القرآن جدير بالاهتمام ، لما حواه من النظريات العالية، والارشادات القيمة، فهو الروح الذى غير تلك الأمة الجاهلة، الى أمة ذات مدنية زاهرة، بسطت جناحيها على منطقة تحد غربا بآسيا ، وشرقا بحدود الهند . فقد انقلب الرعاة البسطاء ما بين طرفة عين الى مؤسسى امبراطورية عظيمة ، مرصعة بالمدن الكبرى . وهم الذين جمعوا المكاتب القيمة . وهل من ينكر العظمة التى وصلت اليها القسطاط ، وبغداد وقرطبة ودلهى ؟ الى أن قال : ويجب أن لا تنسى أوربا أنها مدينة لهذا الكتاب ، ولهذا النبى بشمس العلم التى أطلت على أرجائها فقشعت ظلمات القرون الوسطى الخ . . . »

وقد تمكن الأسلام بفضل مبادئه التى وجدت المكان الرحب من النفوس أن ينتشر انتشاراً عظيما فى جميع الأقطار والأمصار التى توجه اليها . وقد بدأت تتجلى المدنية الاسلامية ، فى أيام الخلفاء الراشدين ، وأخذت تنمو فى عصر الأمويين ، حتى بلغت أوجها فى زمن العباسيين ، ودولة الأمويين الثانية . فكانت بغداد والأندلس هما المكانان العظيمان اللذان ازدهرت فيهما المدنية الاسلامية بأجلى معانيها . فمن بغداد انتشرت المدنية الى فارس وغيرها من الأقطار الشرقية ، ومن الأندلس ذهبت الى أوربا وغيرها من الأمصار الغربية .

*
* *

قال درابر الامريكى : بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم ، حولوا أفكارهم نحو المعارف والعلوم ، فامتازوا فيها ، وبرزوا على معاصريهم ، إذ كان من مبدئهم أن يرقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ، ومما يجدر بالذكر أنهم لم يعتمدوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل على المراقبة والامتحان بواسطة الآلات ، وذلك ماصيرهم مبتدعى الكيمياء ، وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتنجير ، ورفع الأثقال ، ودعاهم الى استعمال الربع ، والأسطرلابات فى علم الهيئة واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما اختصوا به دون سواهم ، والى صنع جداول للجاذبية النوعية فى علم الهيئة . كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس ، وسمرقند ، وجعلهم يوجدون أيضا تحسينات عظيمة فى قضايا الهندسة ، وحساب المثلثات ، واختراع الجبر واستعمال الأرقام العديدة فى الحساب ، وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط ، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضاً ، مطلقين على ذوات القدر الأعظم ، أسماء عربية ، لا تزال ترد على كراتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة . وقرروا طول السنة ، وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أشياء بعثت نوراً باهراً على نظام العالم . واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين فى استعمال الساعة الدقاقة . وانشأوا العلوم العملية ، علم الكيمياء ، واكتشفوا بعض أجزائه كحامض الكبريتيك وحامض النتريك

والكحول . الى أن قال : والذى يدهش كثيراً أن نتصور أشياء ونفتخر أنها من مواليد عصرنا ، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا اليه الخ . . . »

نستخلص من هذه الشهادة التى شهد بها العلامة دراپر مقدار ما بلغته المدنية الاسلامية من السمو والرفعة . فقد كان للعلماء والمؤرخين ، والشعراء والأدباء فى الأندلس مجامع علمية وأدبية ، أشبه بالمجامع الأوربية فى هذا العصر . وذلك لنشر العلوم والمعارف ومداولة الحكمة بينهم ، فنتج من اجتماعهم فوائد جليلة للعلم والمدنية .

وقد ذكر المؤرخون أن ملوك غرناطة ، فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ، ويلقوا المنافسة بينهم ، وربما ميزوهم بامتيازات خاصة . وقد اشتهر علماء العرب بالعناية التامة فى العلوم المادية ، وبرزوا فيها حتى ظهر فيهم أئمة عظماء . فمنهم من كان يؤلف العشرة أو العشرين مجلداً فى علم واحد ، كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس . فقد ألف كتابه فى ستين مجلداً ، وألف أحمد بن أبان كتاب السماء والعالم فى مائة مجلد ، ابتدأه بالفلك وختمه بالذرة .

وهاكم الفارابى ، وابن رشد ، وابن سينا اللذين تفتخر المدنية الاسلامية بهم وبأمثالهم قد امتازوا بسعة معلوماتهم ، واستيعابهم لأشتات المعارف العامة . فان الفارابى مثلا كان فيلسوفا وطبيباً ورياضياً وموسيقياً بارعاً . وكان ابن رشد فيلسوفاً ، وطبيباً ، ورياضياً ، ومتقناً لجميع العلوم التى عرفها العرب فى عصره ، ملماً بما كتبه اليونان والهنود والفرس ، وابن سينا كان فيلسوفاً ماهراً وطبيباً نطاسياً ، وله مؤلفات عظيمة هى العمدة فى الطب الأوربى الحديث .

وقد برع العرب فى الطب براعة عظيمة ، وتفوقوا على أمم الأرض قاطبة . ويحق للعالم أجمع أن يلقبهم بآلهة الطب فى عصرهم ، ولا تزال أبحاث ابن سينا موضع الاعتبار والبحث العميق فى الطب الحديث .

محمد سعيد بخت ولى

(يتبع)